

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

٤

عمر  
بن سعد

نايف محمد عزت

## عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ

دخل أَيْمَنُ من بابِ المنزلِ وهو غاضِبٌ وصاح : انظُرْ  
يا أبى ماذا فعلتُ « بِسْمَةِ » . لقد أَفْشَت سِرَّنَا ،  
وأضاعت علينا غُنْصَرَ المَفَاجَأَةِ .

قال الأبُ مُهْدِنًا أَيْمَنَ : إِهْدِنَا يا أَيْمَنُ ، ولا تَرْفَعْ  
صَوْتَكَ فى حُضُورِ من هو أَكْبَرُ منك سِنًا . وقل لى فى  
هُدُوءٍ : ماذا فعلتُ بِسْمَةِ ؟

قال أَيْمَنُ : تعلَّمُ يا أبى أَنَّ عِيدَ مِيلادِ صَدِيقِنَا مُحَمَّدٍ ،  
هو يَوْمُ الخَمِيسِ القادمِ ، وقد اتَّفَقْنَا جَمِيعًا - أنا وبِسْمَةِ  
وأَصْدِيقَاؤُنَا فى النَّادَى - أنْ نَحْفِلَ به فى حَفْلٍ صَغِيرٍ ،  
نُقَدِّمُ لَهُ فِيهِ هَدِيَّةً مُنَاسِبَةً ، وَيَكُونُ مُفَاجَأَةً لَهُ .

قال أبوه : فِكْرَةٌ جَمِيلَةٌ ، وتُعَبِّرُ عن شُعُورِ نَبِيلٍ .

قال أيمن : ولكنَّ بِسْمَةَ أَفْشَتِ السَّرَّ ، فنقلتهُ إلى أختِ مُحَمَّدٍ ، التي نقلتهُ بدورها إلى مُحَمَّدٍ ، ففَشَلَتِ المفاجأةُ التي أغدذناها .

قال أبوها غاضبا : أحقا حصلَ منكِ هذا يا بِسْمَةُ ؟  
أحنتُ بِسْمَةَ رأسها في خَجَلٍ ، وقالت : إنما أردتُ أن أكونَ أوَّلَ من يُهنِّئُهُ بعيدَ ميلادِهِ ، ولم أكنُ أعلمُ أنَّ هذا سيُغضبُ الجميعَ مِنِّي .

قال أبوها : من حقِّهم أن يغضبوا يا بِسْمَةُ ، فقد أفسدتِ عليهم غنصرَ المفاجأةِ . ثمَّ إنَّ للصُّحبةِ آدابا يجبُ اتِّباعُها ، فيجبُ ألاَّ ننقلَ الكلامَ من جهةٍ إلى جهةٍ أخرى .  
قال أيمن : أتَعلَمُ يا أبى أنَّ جميعَ أصدقائنا يقولون :  
إنَّ بِسْمَةَ « فتانة » ؟

سمعتُ بِسْمَةَ ذلكَ ، فأنخرطتُ في البكاءِ ، فقال لها أبوها : لا تبكى يا بِسْمَةُ . وساقصُ عليكما قصةَ أحدٍ

الصَّحَابَةِ ، هُوَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ، وَأَعْتَقَدُ أَنَّكَ سَتَسْتَفِيدُ مِنْهَا يَا بُنَيَّ :

أَسَلَّمَ عُمَيْرٌ وَهُوَ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ — وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ — فَتَشَأَ عَلَى تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ وَتَرَعَّرَغَ فِي ظِلِّ آدَابِهِ الْكَرِيمَةِ .

كَانَ لِعُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ قَرِيبٌ لَهُ غَنَى ، اسْمُهُ الْجَلَّاسُ بْنُ سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ . وَكَانَ الْجَلَّاسُ يَعْطِفُ عَلَيْهِ كَثِيرًا وَيُحْسِنُ مُعَامَلَتَهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ أَعْلَنَ الرَّسُولُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — اسْتِعْدَادَهُ لَغَزْوِ الرُّومِ — فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ — وَالْجَمِيعُ يَعْلَمُونَ مَدَى قُوَّةِ الرُّومِ ، وَبُعْدَ الْمَسَافَةِ إِلَيْهِمْ ، وَعِظَمَ الْمَشَقَّةِ فِي حَرْبِهِمْ . فَظَهَرَتِ النُّفُوسُ عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَبَدَأَ الْمُنَافِقُونَ يَكْشِفُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَنْ وُجُوهِهِمْ الْقَبِيحَةَ ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْجَلَّاسُ بْنُ سُوَيْدٍ ، فَقَدْ

تَقَاعَسَ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي إِغْدَادِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى  
الرُّغْمِ مِنْ تَسَابُقِ النَّاسِ جَمِيعًا فِي هَذَا السَّبِيلِ ، فَقَدَّمَ  
عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَلْفَ  
دِينَارٍ ذَهَبًا ، وَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَرَفٍ مِائَتَيْ أَوْقِيَّةٍ مِنَ  
الذَّهَبِ ، وَتَسَابَقَتِ النِّسَاءُ فِي خَلْعِ خُلِيِّهِنَّ وَتَقْدِيمِهَا  
لِلرُّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُشَارِكْنَ بِهَا فِي إِغْدَادِ  
الْجَيْشِ . وَعَزَّ عَلَى عُمَيْرٍ أَنْ يَرَى قَرِيْبَهُ الْجَلَّاسَ ابْنَ سُؤَيْدٍ  
- عَلَى الرُّغْمِ مِنْ سَعَةِ رِزْقِهِ وَغِنَاهُ - يَتَقَاعَسُ عَنِ  
الْمُشَارَكَةِ فِي هَذَا السَّبِيلِ . فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ فِي تَأَخُّرِهِ  
وَإِخْجَامِهِ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِيهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الْجَلَّاسُ بِقَوْلِهِ :  
- إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فِيمَا يَدَّعِيهِ مِنَ النُّبُوَّةِ ،  
فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ .

تَسَاءَلَ أَيْمَنُ : مَاذَا كَانَ يَعْْنِي بِقَوْلِهِ هَذَا يَا أَبِي ؟

قال أبوه : كَذَّبَ الْجَلَّاسُ بِقَوْلِهِ هَذَا مُحَمَّداً ، وزعمَ أَنَّهُ مُدَّعٍ لِلنُّبُوَّةِ .

قال أئمن : لقد ارتدَّ بِقَوْلِهِ هَذَا عَنِ الْإِسْلَامِ .

قال أبوه : وهذا ما أفرغَ غُمَيْرًا وَحَزْزًا فِي نَفْسِهِ . فها هُوَ يَسْمَعُ قَرِيبَهُ الَّذِي طَالَمَا عَطَفَ عَلَيْهِ وَأَحْسَنَ مُعَامَلَتَهُ ، يُسْفَهُ الرُّسُولَ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَيُعلنُ عَن كُفْرِهِ بِهِ . وَاحْتَارَ غُمَيْرٌ مَاذَا يَفْعَلُ ؟ آيَلُغُ الرُّسُولَ بِمَا عَلِمَ ، فَيَكُونُ قَدْ أَخْلَى بِآدَابِ الْمَجْلِسِ أَمْ يَتَكْتَمُ مَا سَمِعَهُ ، فَتَكُونُ خِيَانَةً لِلدِّينِ وَلِلرُّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — ؟

قَالَتْ بِسْمَةِ : حَقًّا إِنَّهُ مَوْقِفٌ خَرَجَ ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْمَازِقِ ؟

قال أبوه : راعى غُمَيْرٌ آدَابَ الْمَجْلِسِ ، فَلَمْ يَنْقُلْ لِأَحَدٍ مَا قَالَهُ الْجَلَّاسُ ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ ، أَخْبَرَ

الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا يُضْمِرُهُ الْجَلَّاسُ  
 مِنْ فِتْنَةٍ وَإِنْفَاقٍ .

قَالَ أَيْمَنُ : أَهِيَ لَعَزُ ؟ كَيْفَ أَمَكَّنَهُ أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَ  
 الْأَمْرَيْنِ ؟

ضَحِكَ أَبُوهُ وَقَالَ : قَالَ عُمَيْرٌ لِلْجَلَّاسِ : لَقَدْ قُلْتَ  
 مَقَالَةً إِنْ ذَكَرْتُهَا فَضَحْتُكَ ، وَإِنْ أَخْفَيْتُهَا خُنْتُ أَمَانَتِي ،  
 وَأَهْلَكْتُ نَفْسِي وَدِينِي . وَقَدْ قَرَأْتُ رَأْيِي أَنْ أَمْضِيَ إِلَى  
 الرَّسُولِ وَأَخْبِرُهُ بِمَا قُلْتَ ، فَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ .  
 وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ عُمَيْرًا أَدَّى أَمَانَةَ الصُّحْبَةِ ، فَلَمْ يَقُمْ  
 بِدَوْرِ الْمَتَسَمِّعِ الْوَاشِي ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ أَدَّى حَقَّ  
 دِينِهِ ، فَكَشَفَ عَنِ نِفَاقٍ قَرِيبِهِ . كَمَا أُعْطِيَ الْجَلَّاسُ  
 الْفُرْصَةَ لِيَرْجِعَ عَنْ كُفْرِهِ ، وَيَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ .

وَمَضَى عُمَيْرٌ وَأَخْبَرَ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ - بِأَمْرِ الْجَلَّاسِ . وَطَلَبَ الرَّسُولُ الْجَلَّاسَ وَسَأَلَهُ ،

فَانْكَرَ الْجَلَّاسُ مَقُولَهُ ، بَلْ وَخَلَفَ بِاللَّهِ كَذِبًا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ  
 مَا نُسِبَ إِلَيْهِ . فَشَكََّ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ فِي عُمَيْرٍ ، وَعَزَّوْا  
 ذَلِكَ إِلَى صِغَرِ سِنِّهِ .

وَلَكِنْ ظَهَرَتِ الْحَقِيقَةُ ، وَتَنَزَّلَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ  
 تَوَكَّدُ صِدْقَ عُمَيْرٍ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَحْلِفُونَ  
 بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ  
 إِسْلَامِهِمْ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ  
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ  
 يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا  
 لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

فَارْتَعَدَ الْجَلَّاسُ مِمَّا سَمِعَ وَأَعْلَنَ تَوْبَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى .  
 وَقَالَ : صَدَقَ عُمَيْرٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ،  
 وَأَسْأَلُكَ اللَّهُ أَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتِي .



فمَدَّ الرَّسُولُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ أَذُنَ عُمَيْرٍ ، وَقَالَ لَهُ :  
وَقَدْ أَذُنُكَ يَا غُلَامُ مَا سَمِعْتَ وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ .

وظَلَّ الْجَلَّاسُ يَذْكُرُ فَضْلَ عُمَيْرٍ عَلَيْهِ حَتَّى آخِرِ  
أَيَّامِهِ ، فَكَانَ دَائِمًا يَقُولُ : جَزَاهُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا ، فَقَدْ  
أَنْقَذَنِي مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَعْتَقَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ .

قَالَ أَيْمَنُ : إِنَّهُ حَقًّا غُلَامٌ ذَكِيٌّ ، تَصَرَّفَ بِحِكْمَةٍ  
وَرَجَاحَةٍ عَقْلٍ . وَمَاذَا عَنْهُ يَا أَبَى ، وَكَيْفَ سَارَتْ حَيَاتُهُ  
بَعْدَ مَا كَبُرَ ؟

قَالَ أَبُوهُ : كَانَ عُمَيْرٌ بَعْدَ مَا كَبُرَ مِثَالًا حَيًّا لِلزُّهْدِ  
وَالْتَّقْشُفِ وَالْوَرَعِ ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي عَهْدِ سَيِّدِنَا  
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، ثَانِيِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ . فَقَدْ وَلَّاهُ  
إِمَارَةَ حِمْصَ الشَّامِ . وَحَزِنَ عُمَيْرٌ لِذَلِكَ وَلَمْ يَفْرَحْ ،  
فَهُوَ يُفَضِّلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنِ الْوِلَايَةِ وَتَبِعَاتِهَا .

ولكنها المسؤولية التي يجب على الجميع أن يشارِكوا فيها .

وسافر عُمرُ إلى الشام ، ومضى عام لم يبعث خِلاله بآية رسالة أو آية أموال بيت المال . وقلق الخليفة عُمرُ ابن الخطاب ، وبعث إليه يستدعيه .

وأخذ عُمرُ معه كل ما يملك من متاع ، وشد الرحال إلى المدينة ، فما إن وصل إليها حتى ذهب ليقابل الخليفة .

وتعجب الخليفة من مظهر عُمر ، فقد أغياه السفر ، وعلاه الغبار ، وهزل جسمه وضعف . وسأله الخليفة مُستفسرا :

— أجنّت من الشام ماشيا على قدميك ؟ أليست لك دابة تركبها ؟

فردّ عليه عُصير : لم يُعطوني دأبة ، وأنا لم أطلبها منهم .

وسأله عما رجع به معدّ من الشام ؟  
 قال عُصير : رجعت بكلّ ما أمّلك . فهذا جرابي أحملُ فيه زادي ، وقصّعتي أكل فيها ، وقرية ماء أحمل فيها وضوئي وشرابي ، وعصاي أتوكأ عليها .

قالت بسمّة : أهذه الأشياء فقط هي كلّ ما يملك ؟  
 قال أبوها : إنهم أناسٌ عشقوا الزُّهد ، وفضلوا نعيم الآخرة على نعيم الدنيا .

وعندما سأله عما جاء به لبيت المال ، ردّ بقوله :  
 — لقد وليت بعض الصّالحين أمر جباية الأموال ووضعها في مواضعها ، وأنفقت منها على الفقراء ، فلم يبقَ منها ما يزيد لأبعثه إليك .

فسرَّ عُمرُ لحسنِ اختيارِهِ الوالىَ الصَّحيحَ ، وجدَّدَ له العهدَ . ولكنَّ عُمرًا رفضَ ذلكَ ، وفضلَ البقاءَ بأطرافِ المدينَةِ مع أهله .

ولم يمضِ على ذهابِ عُمرٍ إلى قَرينِهِ بأطرافِ المدينَةِ ، حتَّى بعثَ الخليفةُ عُمرُ بنُ الخطابِ إليه من يَخبرُهُ وَيَسْترِقُ من أمرِهِ .

فطلبَ من أحدِ رجالِهِ ، ويُدعى الحارثُ أن يذهبَ إليه ، وَيَنزِلَ عِنْدَهُ كضيفٍ فى منزله ، فإن رأى عليه آثارَ النعمةِ فليُعِدْ إليه وَيُخبرُهُ ، وإن وجده فى بُؤسٍ شديدٍ ، فليُعْطِهِ مِائَةَ دينارٍ أعطاها له .

ونزلَ الرَّجُلُ ضيفًا على عُمرٍ ، وقد خُصَّصَ له كلُّ لَيْلَةٍ قُرْصٌ من الشعيرِ . ولم تمضِ عَلَيْهِ بِضْعَةُ أَيَّامٍ عِنْدَ عُمرٍ ، حتَّى جاءَهُ رَجُلٌ وقالَ له : لقد أَجْهَدْتَ عُمرًا وأهله . فليسَ لَهُمُ إِلَّا هَذَا القُرْصُ الَّذى يُؤَثِّرونَكَ بِهِ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ ، وَالْآنَ وَقَدْ أَضْرَبَهُمُ الْجُوعُ وَالْجَهْدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ إِلَى فاعْمَل .

عِنْدُنَا قَدَمُ الْحَارِثِ الْمِائَةِ الدِّينَارِ إِلَى عُمَيْرَ ، الَّذِي أَبَى أَنْ يَأْخُذَهَا . وَلَكِنْ زَوْجَةُ عُمَيْرَ رَاحَتْ تَحْتُهُ عَلَى أَخْذِهَا . فَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ هُوَ بِهَا لِنَفْسِهِ ، فَهُنَاكَ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا . وَبِالْفِعْلِ أَخَذَ عُمَيْرُ الدُّنَانِيرَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَبْتَ فِي دَارِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ نَصِيبِ الْفُقَرَاءِ وَأَبْنَاءِ الشُّهَدَاءِ .

قَالَ أَيْمَنُ : وَلِمَاذَا أَرَادَ سَيِّدُنَا عُمَيْرُ أَنْ يَخْتَبِرَهُ ؟ أَلَمْ يَكُنْ يَثِقُ بِهِ ؟

قَالَ أَبُوهُ : حَاشَا لِلَّهِ يَا أَيْمَنُ . وَلَكِنَّهَا طَبِيعَةُ سَيِّدِنَا عُمَيْرَ وَالْمُسْلِمِينَ الْأَوَّالِ ، فَهُمْ حَرِيصُونَ دَائِمًا عَلَى تَقْصِي أُمُورِ رَعَايَاهُمْ ، وَيَجِبُ إِلَّا يَقْصُرُوا فِيهَا ، فَسُأَلُوا عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَنَعُوذُ لِعُمَيْرٍ ، فَجَدُّ أَنَّ الْخَلِيفَةَ مَا إِنْ سَمِعَ مِنَ  
الْحَارِثِ عَنْ مَدَى فَقْرِ عُمَيْرٍ وَزُهْدِهِ ، حَتَّى طَلَبَهُ  
لِمُقَابَلَتِهِ :

وَعِنْدَمَا عَرَفَ أَنَّهُ تَصَدَّقَ بِالْمِائَةِ الدِّينَارِ كُلِّهَا ، أَمَرَ لَهُ  
بِحَمْلِ بَعِيرٍ مِنَ الطَّعَامِ وَثَوْبَيْنِ . وَبَعُزُوفِ الْقَانِعِ رَفَضَ  
عُمَيْرُ الطَّعَامَ وَقَالَ : لَقَدْ تَرَكْتُ عِنْدَ أَهْلِ صَاعَتِي مِنَ  
الشَّعِيرِ ، وَإِلَى أَنْ نَأْكُلَهُمَا يَكُونُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ  
جَاءَنَا بِرِزْقِنَا . أَمَّا الثَّوْبَانِ فَأَخَذَهُمَا لِزَوْجَتِي ، فَقَدْ بَلِيَ  
ثَوْبُهَا وَكَادَتْ أَنْ تَعْرَى .

وَلَمْ يَمُضْ عَلَى هَذَا اللَّقَاءِ وَقْتُ طَوِيلٍ ، حَتَّى لَقِيَ  
عُمَيْرُ رَبَّهُ . لَقَدْ مَضَى وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا نُورَةٌ وَهْدَاهُ ،  
وَوَرَعُهُ وَتَقَاهُ .

وَحِينَ عِلِمَ الْخَلِيفَةُ عُمَيْرُ بَنِيًا مَوْتَهُ ، قَالَ : وَدِدْتُ لَوْ  
أَنَّ لِي رِجَالًا مِثْلَ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ ، أَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي أَعْمَالِ

المُسْلِمِينَ .

قَالَ أَيْمَنُ : لَقَدْ ضَرَبَ عُمَيْرٌ أَفْضَلَ مِثَالٍ فِي الْأَخْلَاقِ  
الْحَمِيدَةِ ، وَالزُّهْدِ وَالْوَرَعِ .

قَالَ أَبُوهُ : وَالْآنَ يَا بَسْمَةَ اذْهَبِي إِلَى أَصْدِقَائِكَ ،  
وَاعْتَذِرِي لَهُمْ عَنْ إِفْشَائِكَ سِرِّهِمْ ، وَاحْرَصِي دَائِمًا  
عَلَى آدَابِ الصُّحْبَةِ ، حَتَّى تَتَغَيَّرَ فِكْرُهُمْ عَنْكَ .  
قَالَتْ بَسْمَةُ : يَا ذَنِ اللَّهُ سَأَفْعَلُ يَا أَبِي .